

تجليات الفصحى والعامية في العملية اللغوية وانعكاساتها في رصيد المعجم العربي
The Manifestations of Classical Arabic and Colloquial Arabic in the
Linguistic Process and their Reflections on the Arabic Lexicon

بلال لعفيون *

Bilal lafioune

مخبر اللغة وتحليل الخطاب

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر)

University of mohamed essadik ben yahia-jijel (Algeria)

Bilal.lafioune@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/11/10

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

مُلَخِّصُ الْمَقَالَةِ

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن كلٍّ من الفصحى الرسمية واللهجة العامية في الممارسة اللغوية وفي رصيد المعجم؛ لأنَّ الأشياء كثيرًا ما تتضح حين شرحها مقرونةً بأضدادها، ودراسة اللهجات مقرونةً بالفصحى من هذا القبيل؛ إذ يُعمَّق في تفاصيل كليهما ويُوضَّحُ مُستوى وخصوصيات كلٍّ مستوى عن نظيره بالمقارنة والمقابلة بينهما. وسنعمل في مقالنا على بيان حال العامية أو اللهجات في كلٍّ من الدرس اللساني والمعجم العربي؛ هل توجد عناية ودراسات أكاديمية للهجات؟ أم أنها مُهمَّشة؟ وعلى اعتبار أنَّ الاستيعال اللغوي هو مانحُ سلطة الوجود اللغوي، فهذا يعني أنَّ الدرس اللساني والمعجمي العربيين عليها الاهتمام بكُلٍّ من الفصحى والعامية على السواء نظرًا لاستعمالها، فهل هذا الحاصلُ فعلاً؟
الكلمات المفتاح: فصحى، عامية، لسانيات، معجمية، مركز، هامش.

Abstract :

Things often become clearer when explained alongside their opposites, and the study of dialects alongside Classical Arabic is of this nature. It deepens the understanding of the details of both and clarifies the level and characteristics of each through comparison and contrast. In this article, we will examine the status of colloquial Arabic or dialects in both linguistic studies and Arabic dictionaries:

* بلال لعفيون: Bilal.lafioune@univ-jijel.dz

Is there any attention and academic researches devoted to dialects, or are they marginalized? Considering that linguistic usage grants the authority of linguistic existence, this implies that both Arabic linguistic and lexicographical studies should pay equal attention to both Classical and colloquial Arabic, given their usage. Is this actually the case?

Keywords: Classical Arabic, Colloquial Arabic, Linguistics, Lexicography, center, periphery.



مقدمة:

تميّزت اللسانيات الحديثة بدراستها المعمّقة للغات في شتى فروعها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية، كما أنها عُرِفَتْ أيضًا بالدقة العلمية والمنهجية في سنّ القواعد والأسس اللغوية. وبالتّظر حركة اللغة في محورين رئيسين هما الكتابة والكلام، فالدرس اللساني يتبع لذلك يبحث في قضايا هذين المحورين قصد التّمكن من الضبط العلمي لقواعد اللغات الإنسانية نطقًا وكتابةً.

وعلى اعتبار أنّ اللغات أنواع ومستويات، فهذا يستلزم بعضًا من الخصوصية العلمية في دراسة كلّ لغة. وما دامت اللغات تتقيد بقواعد تشدّ بنيتها فمن السهل حينها دراستها واخضاعها لقواعد الدرس اللساني ونظرياته. لكن الانقلاط يحصل حين تُطبّق أُسس الدرس اللساني على اللهجات، أو أن تخصص دراسات لسانية للهجات لم تستجمع نفسها في نظام كتابة وتركيب يُبين بنيتها العامة. فغلبت الشفوية على اللهجات يكسبها ميزة عن الفصحى، وفي الوقت نفسه يبعدها عن الدراسات العلمية واللسانية الدقيقة، لقلة القواعد والأسس فيها؛ إذ الثابت في الشيء هي التي تقود إلى تطبيق وتجسيد العلمية عليه. لهذا تهتمّ الدراسات اللسانية بتطبيق نظرياتها على اللغة الفصحى الرسمية كي تستند على قواعد اللغات في التّفسير. أي أنّ اللغة تمثل مركز الدرس اللساني بينما اللهجة هي هامش الدراسة اللسانية. ويتضح هذا المعطى أكثر حين نعلم أنّ اللسانيات تهتمّ باللغات الرسمية وتحدّد أسرها اللغوية، بينما يغيب هذا الإجراء أو الاهتمام باللهجات العاميات المتداولة بين أفراد المجتمع؟ فهل الدرس اللساني يفرق في منهج دراسته بين اللغة الفصحى واللهجة بناءً على أسس علمية؟ أم أنّ اللغة باعتبارها مركز الدرس اللساني أسهمت في إقصاء وإبعاد اللهجات من مجال الدراسة؟

وبالموازاة مع الدرس اللساني للغات واللهجات نجد كذلك الدراسة المعجمية لها. فالمعجمية في وضعها للمعاجم تعمل على جمع مادتها المعجمية من الثروة اللغوية الكبرى المستعملة فعلاً. فهل يوجد توافق وتوازن

عند المعجمي في جمع رصيد معاجمه من الفصحى واللهجة أم توجد مفاضلة لمستوى على آخر؟ وما مدى جمع
رصيد المعجم العربي لها؟

وعلى سبيل التمثيل بمؤلف معجمي: كيف تعامل 'المعجم الوسيط' مع اللغة واللهجة من حيث التوثيق أو
الإقصاء؟

معلوم أيضا لدى اللغويين أنه حين معرفة الحالة اللغوية لأمة من الأمم يكون التوجه إلى معاجمها، ومن
خلالها يعرف هل هي لغة ذات رصيد لغوي عصري فيعرف أنها حية، أم أنها ذات رصيد لغوي تراخي فيثبت
أنها جامدة أو منغلقة ومتوقفة على ماضيها. كما أن صفاء رصيدها من اختلاطه بالفاظ الحضارات الأخرى له
دلالتة في بيان حصول تأثير وتأثر بين باقي اللغات الإنسانية.

وإذا أردنا أن نعرف مدى اعتماد اللهجات في الشأن العام للبلاد وكذا في الدرس اللساني نتجه إلى المعاجم،
لأن إثبات أصوات اللهجات أو ألفاظها وتراكيبها في المعاجم يدل بوضوح على اعتماد هذه اللهجات في الواقع
الفعلي وفي الدرس الأكاديمي. ومن هنا نتساءل عن لهجاتنا العربية:

هل توجد دراسات لسانية عربية خاصة باللهجات؟ وهل هناك إثبات لرصيد اللهجات في المعاجم العربية؟
الهدف من هذا الموضوع هو بيان حال اللهجات في الدراسات اللسانية العربية، وكذا موقعها بمحتوى
ورصيد المعاجم. وأن اللهجات متى ما تطرق لها بالدراسات والتحليل في اللسانيات إلا ودخلت تبعا لذلك في
مادة المعاجم. كما أن الحال التي عليها علاقة اللسانيات باللهجات في لغات العالم عامة، ليست بالضرورة هي
العلاقة نفسها في اللغة العربية.

1- ضبط مصطلحي:

حتى لا يكون هناك لبس في لغة البحث، نوضح المصطلحات الرئيسية التي اعتمد عليها في تحليل
ومناقشة الموضوع، وهي كالتالي:

أ- اللهجات العربية:

تُعرف اللهجات في اصطلاح الدراسة العلمية الحديثة بكونها: "مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة
خاصة، ويشارك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة
لهجات. لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه
البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث، فهما يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه
اللهجات"¹.

وحين نُخصّص التعريف باللّهجات العربية، نجدّها تعني مجموعة اللّغات التي صاحبت العربية الفصحى المشتركة قديماً؛ مثل: الكشكشة والكسكسة والفحفة والنعنة والإستنطاء²، (...) وغيرها من صفات اللّهجات التّراثية.

أمّا حديثاً فهي مجموع العاميات التي تتداول في البلدان العربية إلى جانب العربية الفصحى الرّسميّة مثل: اللهجة السورية، واللهجة المصرية واللهجة التونسية واللهجات الجزائرية.

والفرق الحاصل بين اللهجات العربية القديمة والحديثة، أن القديمة مستوحاة بنيتها كلياً من اللغة العربية الفصحى، بينما في العصر الحديث نجد اللّهجات لصقت بها رطانات وميزات صوتية وتركيبية من لغات أجنبية أخرى إلى جانب اللغة العربية. وتبقى بينه التّواصل اللّغوي ونوعه هي العنصر الفاصل في الحكم على عربية اللّهجة من عدمه.

عموماً القول باللّهجة يعني: "لغة التّواصل اليومي ولغة الحياة، وهي اللغة الشّعبيّة ولغة التّعبير"³ وهذا الأمر يجعلها تميّز بـ: (قلة القواعد والقوانين اللّغوية، مع زيادة الحروف الأبجدية أو نقصانها في بعض مفرداتها، وتنوع الظواهر الصوتية وعدم انتظامها، ...) وغيرها من التّقاط التي تخالف بها اللغة الفصحى الرّسميّة. وهو ما جعل علماء اللغة يقولون عن اللهجة إنّها: "لغة لا ذاكرة لها، وهذا ما يخفف عليها حركتها وتجديدها وحدائتها"⁴. فمن لا قيّد له لا يتوطّن في مكان، ولا على أسس وركائز ثابتة أيضاً.

ب- اللّحن:

بالعودة إلى المعاجم العربيّة نجدّها تقرّر اللّحن بمعنى الخطأ، ومما ذكره "ابن فارس" في معجمه "مقاييس اللغة" أنّ: "اللام والحاء والنون (...) تدل على إمالة شيء من جمته (...). فأما اللّحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جمته الصحيحة في العربية"⁵.

وهو المعنى الذي ترسخ في ذهن اللّغويين، بأنّ اللّحن قرين الخطأ؛ فحين القول إنّ فلان لحن في كلامه، يُعنى به أنّه أخطأ في صياغة كلامه وفق ما يجب أن يكون عليه من سلامة الصياغة ووضوح المعنى. وبإسقاط اللّحن كمفهوم على كلّ من اللغة واللهجة نجدّه منعكس وارد في اللّهجة غائب مفقود في الفصحى؛ لأنّ الفصحى لها قواعد تضبطها في حين اللّهجة لا قواعد تقوّمها. أي كأن اللّهجة بتركيبها الكلية هي عبارة عن لحن في الفصحى وخروج عن نمطها في التركيب أو الدلالة. الأمر الذي يجعل الكثير من الباحثين يربطون الاعتراف باللهجة في الدرس اللساني العربي أو في المعاجم العربية بقبول اللّحن في لغة التّواصل ومن ثمّ توثيقه في المعاجم.

لهذا -ومن باب التخطيط اللغوي الجيد- لابد من الفصل بين اللحن كظاهرة لغوية تعني الخطأ وبين اللهجة كمستوى لغوي لساني. وأن الاعتراف باللهجات لسانيًا يؤهل هذه اللهجات للدراسة اللسانية، ولا يعني مطلقاً الاعتراف باللحن. كما يمكن من الوقوف بالبحث العلمي عند كل مستوى بخصوصياته.

زيادة لهذا فكما يكون اللحن في اللغة العربية الفصحى يكون اللحن في اللهجات العربية كذلك، لأنه لكل لهجة خصوصيات ومعالم تُعرف وتتميز بها عن غيرها. ومنه متى ما يكون هناك خروج عن قواعد اللهجة المألوفة يؤدي إلى حصول لحن وخروج عن المألوف في استعمالها.

ج- المركزية والتمكين:

الدلالة التي تُوظف بها هذا المصطلح تُخصّ الجانب اللساني، أي مركزية ومحورية لغة معينة في العملية التواصلية، والتمكين الحاصل لها في الاستعمال والتعليم، وهو الشكل الأعلى للغة. ويكون من خلال الخطوة أو الامتياز في الاستعمال الرسمي بالجمع، للتعليم والقاء المحاضرات الرسمية، وكذا توثيق وأرشفة الموروث الثقافي زيادة لتسجيل وحفظ العلوم والمعارف.⁶

د- الإهمال والتهميش:

وهو على عكس ما ذكر في العنوان السابق- يعني إهمال وتهميش لساني في الممارسة اللغوية وفي الاعتراف الفعلي بلغة ما، وتما يعكس التهميش اللغوي أو الشكل الأدنى للغة: "حصر لغة أو لهجة في أسلوب أدنى مخصص للاستخدامات غير الرسمية في المجتمع كالنحو مع الأصدقاء وأفراد الأسرة والأقارب"⁷، الأمر الذي يساهم في قلة المحوّل المعرفية والثقافية؛ أي تخفيف هذه اللغة من إمكانية حمل الموروث العلمي والثقافي الإنساني، مما يؤدي حتماً إلى التلاشي والزوال مع الوقت. فاللغة التي لا تكتب ولا تُوثّق حاضرها، لا مستقبل لها على المدى الطويل.

هـ- الثروة اللغوية والمادة المعجمية:

تُعرف الثروة اللغوية بأنها مجموع الرصيد اللغوي الممكن للغة ما، أمّا اصطلاحنا 'المادة المعجمية' فهو اصطلاح تعني به؛ الرصيد اللغوي الفعلي الذي تمّ توثيقه وشرحه في معاجم هذه اللغة.

والعلاقة بينهما تكمن في أن:

المادة اللغوية تتميز بجرية وتلقائية الزيادة لرصيدها، لأنها تشمل كل المفردات التي يستخدمها الجمهور اللغوي المستعمل للغة الناطق بها. في حين المادة المعجمية تُميز بمحدودية ودقة الزيادة لها؛ لأنها لا تُعرف إلا بعد تحديد نوع المعجم المراد وضعه وحجمه والقائمين عليه، وهي انتقاء من رصيد اللغة المتفق فعلاً على كتاباته ومعناه، أي المادة اللغوية لا تخضع للتدقيق والتحصيل، فالاستعمال هو سيد اثباتها، بينما المادة المعجمية يزيها اللغويون والمعجميون الضالعون بأمر اللغة. إذ لابد من جمع دقيق وشرح مفصل قبل إدخال مادة ما للمعجم.

أي؛ إذا كنا في عملية إنتاج الثروة اللغوية لا نجد تقيّد بالمستوى والمجال عن كل الناطقين باللغة، فإنّه حين إدخالها إلى دفتي المعاجم توجد عديد عمليات التخصيص والتدقيق ثمّ الشرح والتبسيط للمعنى يقف عليها مختصون.⁸

2- الفصحى والغامية أو مُعادلة المركز والهامش:

تُعرف اللهجات وتُحدّد أكثر حينَ مقارنتها بالفصحى؛ لأنّ الفصحى بكونها اللغة الرسمية ومركز الثقل اللغوي، فحتمًا مصير اللهجات الأخرى سيكون التّرحُّح إلى الهامش، ومنه تُشرح وتُدرس اللهجات احتكامًا إلى اللغة الفصحى نظرًا لما تُمثّله من مركز لغويّ جامع لكلِّ ما حوله. ولهذا يقرّ المختصّون أنّه: "هناك واقعان أساسيان للغة: وهما (1) أنّها تتغيّر دائمًا، في كلّ مجالات البنية اللغوية (الصوتية، التركيب، الأسلوب الخطابي، الدلالة، المعجم). و(2) أنّها تتغيّر بطرقٍ متباينة في مختلف الأماكن والأوقات"⁹. والمُرَاد من توظيف هذا الشّاهد أنّ توكّد مكانة اللغة كمركزٍ ثابتٍ دومًا، ومع ذلك هناك تغييرات تُسجل في بنية اللغة صوتيًا وصرفيًا وتركيبًا ودلاليًا وكذلك مفرداتيًا، وهو ما يُمثّل منبع تغيّر تتدفق منه لغة العامة من الناس ويسمح باستمرار التواجد الدائم للهجات بالتوازي مع وجود اللغة الرسمية الفصحى. ويمكن التعبير عنه بأنّ اللغة شجرة مثمرة، في حين اللهجات هي الأعشاب والطفيليات التي تنمو مع الشجرة، مستفيدة من خصوبة تربتها ووفره العناية بها. وعمومًا تتميّز اللهجات باقتصرها على الشّيق الشّفويّ، بينما تتوزّع الفصحى على الشّقين الشّفويّ والكتابي، وهو أمر ناتج عن قلة أو غياب القواعد عن اللهجات، بينما تتميز الفصحى بترسانة القواعد الضابطة لها. وهناك من يُلخّص هذا الطرح بقراء عكسية بالتأكّد على "أنّ اللغة المكتوبة تميل أكثر تجاه قوة الجذب المركزيّ، بينما تميل اللغة المنطوقة إلى سيات الإبعاد المركزي والسمات المفتعلة"¹⁰.

المعلوم أنّ وجود المعاجم على تنوعها، قائم على تواجد الرّصيد اللّغوي للمجتمعات اللغوية أولاً؛ فما المعجم إلّا جمع للرصيد اللّغوي الذي يُستعمل عند جمهور المجتمع اللّغوي البشري، مع العمل على تنظيمه وشرحه وفق أسس واضحة. والإثبات أو الإقصاء للهجات في المعاجم عائد في الغالب لمدى قرب اللهجة من اللغة الرسمية، وهو القرب الذي تتحكّم فيه ظروف حضارية ولسانية متنوعة. وفي أحيان أخرى تدخل اعتبارات جانبية نحو: "توجه واضع المعجم"، إذا كثيرًا ما يكون صاحب المعجم ملتزمًا بفصح اللغة الرسمية، أو متقيدًا باللغة التراثية. وغيرها من الاعتبارات. زيادة إلى أنّه في بعض الأحيان تدخل اللهجات بتمثيل قوي وكبير جدًّا من رصيد المعجم، ويقودنا ذلك إلى التوجه نحو صنيع المعجمين الياسوعيين بلبنان، ومرات إيمان المعجميين بقوة لهجة ما يدفعهم إلى إدخالها في رصيد المعجم دون باقي اللهجات الأخرى، نحو حال اللهجة المصرية في "المعجم الوسيط". وهذا الأمر لا يُدرس من جانب علاقة وقرب اللهجة من الرسمية، بل الحاصل أنّ واضعوا المعجم يوظفون لهجتهم فقط. إذا لو قام على "المعجم الوسيط" -مثلا- خبراء من "دولة تونس" لوضعوا لهجتهم، بدلا

من اللهجة 'دولة مصر'، وهكذا دواليك مع لهجة أي معجمي يقوم بوضع معجم. وهذا الإجراء ينعكس سلباً - للأسف - على مرتبة واستعمال المعجم؛ لأنه لا يمكن أن نؤلف معجمًا يهدف وصوله إلى كل الجمهور اللغوي الناطق باللسان العربي في العالم بينما نحن نضمّنه فقط النزر القليل من لهجة بلاد واحدة أو بلدين، دون باقي اللهجات العربية متواجدة في عشرات البلدان الأخرى. ودون أن تُغفل لهجات الناطقين بالعربية من غير العرب؟

3- علاقة اللهجات العربية بالفصحى قديماً وحديثاً:

الوضع الحضاري للبلاد العربية في وقتنا الحاضر مختلف عمّ كان عليه حالها قديماً، فقد سادت الحضارة العربية لقرون واعتلت معها اللغة العربية عرش اللغات، في حين الوقت الحاضر يشهد العرب على أنفسهم بأنهم في مؤرخة ترتيب الدول خاصة من ناحية علوم العصر التقنية والعلمية والطبية وغيرها من المجالات التي يعتمد عليها في واقعنا المعيش. ونظراً لتوافق اللغة مع حال الأمة في الريادة أو الركود تتساءل:

هل علاقة اللغة العربية الفصحى باللهجات قديماً هو نفس العلاقة بين فصحى العربية ولهجاتها في العصر الحديث؟ وهل هناك تفاوت واختلاف في توافق المركز والهامش اللساني العربي؟ (ففي القديم الفصحى هي الأصل واللهجات فروع من أسرة واحدة- أمّا في العصر الحديث، لهجات خليطة من أسر لغوية متعددة ولغات أجنبية).

لقد سادت المعيارية في الدراسات اللغوية عند مختلف الحضارات بحيث كانت اللغات تقسم إلى نوعين الأولى منها راقية ومتقدمة والثانية بدائية منحلة، واستمر هذا الوضع إلى غاية انكساره بالطرح اللساني الذي قدمه 'دي سوسير' حيث أحدث "قطيعة في صلب الدراسات اللسانية، بإخراجها من طابعها المعياري، والاتجاه بها وصفيًا، لتتغير معها النظرة إلى اللغات، خصوصاً نظرة تفوق لغات معينة وسيادتها، وانحطاط أخرى وبدائيتها، وغير ذلك من النظريات العرقية ذات الأبعاد العنصرية، وهي رؤى أيديولوجية عملت على تكريس دونية شعوب العالم غير المتقدمة آنذاك"¹¹، وهذا الطرح أقرب لعكس التفاوت الحاصل بين اللغة واللهجة من أن يكون بين اللغات. لأن اللغة تتميز بشيء من الغلوية لكونها آلة التعلم والتعليم والتحصيل المعرفي، في حين تقتصر اللهجة على التواصل وما يقتضيه من معلومات بسيطة في غالبها الأعم، لأن اللهجة تواصلية بالدرجة الأولى في حين اللغة تواصلية معرفية بدرجة أكبر.

في القديم كان التفوق والغلبة للغة العربية الفصحى في الاستعمال اليومي بين أفراد المجتمع اللغوي العربي، الأمر الذي أدى إلى تفعيل الفصحى، ومنه جاءت المادة المعجمية للمعاجم العربية التراثية قريبة من جمهور الناطقين باللغة العربية لأنها تمثل الرصيد اللغوي الفعلي.

أما في العصر الحديث فنجد تراجع مكانة اللغة العربية الفصحى في الاستعمال، وانتشار اللهجات في مختلف مجالات التواصل بل صارت اللهجات تشكل نسبة واضحة من لغة التعليم في مختلف الأطوار التعليمية، الأمر الذي جعل لغة المعاجم العربية المعاصر متباينة ومختلفة عن الرصيد المتداول فعليا؟. وانطلاقا من هذا فتوافق اللهجات التراثية مع العربية الفصحى دفع اللغويون إلى التعامل معها بنفس قواعد الفصحى الرسمية، وقبلوا ما توافق منها مع قواعد ومعاني اللسان العربي في المعاجم اللغوية وكتب التفسير وكتب الأدب والتأودر. أما في العصر الحديث فقد رُفِض إدخال مفردات اللهجات إلى قاموس العربية الفصحى، بسبب خروجها عن دائرة اللغة العربية شكلاً ومضموناً واختلاطها بأصوات وقواعد اللغات الأجنبية. وبلخص الباحث "نذير محمد مكثبي" هذا الطرح حين يقول: "نحن لا ننكر أن العامية تسيطر على ألسنة معظم جماهير العرب اليوم، ولا ننكر أن لها رصيذا كبيرا في حياة الناس، ولكن نرفض أن تكون بديلاً عن الفصحى وعاملاً في تكوين حياتنا الجديدة؛ لأنها مزيج من الدخيل والغريب والعربية المضطربة الزيككة والفصحى السليمة والمشوهة. مثل هذه اللغة لا تصلح أن تكون مقوماً للامة؛ لأنها تفتقد عنصر الثبات في جوهرها، فهي عرضة للتغير المستمر والانسلاخ المتكرر عن أصولها، هذا إذا اعتبرنا أن لها أصولاً وجذوراً تربطها باللغة الأم"¹². وهذا موقف يعبر عن عدم تقبل اللهجة بديلاً كلياً للفصحى الرسمية، ويتقبل أن يترك للهجة مجالاً مجاوراً للفصحى ومستوى تواصلياً لعامة الناس.

4- رصيد المستويات اللغوية في المعجم:

القصد من هذا العنوان تحديد رصيد كل مستوى من المستويات اللغوية¹³ في المادة المعجمية للمعجم، من غير ربط نسبة كل مستوى بما هو عليه حاله في الاستعمال اللغوي الفعلي. لأن رصد المعجم لا يعكس فعلياً مستويات اللغة كما هي في لغة التواصل بالوطن العربي، والفرق واضح بين مستويات اللغة كما تجسدها المعاجم وكما تثبتها الممارسة اللغوية. و"يراد بالممارسات اللغوية؛ المسح الميداني الفعلي لجميع التكميلات اللغوية واللهجية، الناشئة بفعل الاحتكاك بين اللغات، أو بفعل عاملي الجغرافيا والاجتماع"¹⁴؛ أي تحديد اللغات بناء على مدى ممارسة التواصل والتعليم وتسيير شؤون الحياة بها.

كثيراً ما تساهم المعاجم في تحديد أولوية لغة أو لهجة على أخرى في البلد أو الحضارة الواحدة، بل وتكون سبباً رئيسياً في إبرازها وتطويرها. فالمعاجم متى ما وثقت رصيد لغة ما فهي تؤدي بالضرورة إلى نشرها والتمكين لاستعمالها أكثر. لهذا حين نبحث مثلاً عن نسبة رصيد كل من: اللهجات، العربية الفصحى، واللغات الأجنبية في معجم من المعاجم العربية، يمكننا بعد تحديد النسبة المرتفعة، تحديد طبيعة المستوى اللساني للبلاد؛ هل يغلب عليها الشعبوية والتمكين للهجات، أم المعاجم اللغوية محكمة والسيادة للغة الرسمية الفصحى المشتركة، أو انحاء للخصوصيات اللغوية وبرزوافد من لهجات لغات أجنبية دخيلة.

لكن في بعض الأحيان تحدث مفارقة من خلال عدم تحقيق شرط من هذه الشروط الثلاثة، كما هو الحال في البلاد العربية:

فالمعجم اللغوي العام العربي مشحون برصيد هائل من اللغة العربية الصافية الفصيحة، في حين لما نسقط لغة هذه المعاجم على الممارسة اللغوية الفعلية في البلاد العربية نجد الوسط يخلو من توضيح جليّ مادة هذه المعاجم والسيادة اللغوية في ميزان 'الاستعمال' أو 'التواصل اللغوي الفعلي' حاصلة للهجات العربية وكثير من العبارات الأجنبية التي نجد في مقدمتها اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، اللتين لها مبرراتها التاريخية الاستعمارية في فرض وجودهما بالساحة اللغوية. وهذا يدل على غياب التخطيط اللغوي وعدم وجود سياسات لغوية دقيقة، تضمن تهيئة لغوية سليمة لأفراد الأمة. الأمر الذي انعكس بمفارقة لغوية، حيث أصبح الرصيد اللغوي النظري للمعاجم من مستوى، ورصيد التواصل والممارسة اللغوية من مستوى آخر غيره؟.

5- موقف مجمع اللغة العربية من إدراج اللهجة في رصيد المعجم:

نظراً لكون مجمع اللغة العربية بالقاهرة¹⁵ من بين المجمع العربية الأولى في التأسيس، ومن أكثرها تأليفاً للمعاجم على اختلاف أنواعها، زيادة إلى توسع وتنوع تخصصات وانتماءات أعضائه. اخترناه كعينة للدراسة عن باقي المجمع العربية لبيان الموقف المتخذ في التعامل مع اللهجة أو العامية حين جمع ووضع رصيد المعاجم. هل توجد حرية في اختيار المفردات من اللغة أو اللهجة على السواء؟ أم هناك تقيّد بمفردات اللغة العربية الفصيحة فقط؟ أو هناك شروط لكلٍ منها؟

بالعودة إلى الآراء والقرارات التي أثبتتها أعضاء المجمع في هذه النقطة، نجد أنه تم:

- تشكيل "لجنة اللهجات" بالمجمع تعني بدراسة اللهجات العربية من بين (11) لجنة في أول دروة لانعقاد المجمع وهذه اللجان هي¹⁶:

1- لجنة الرياضيات.

2- لجنة العلوم الطبيعية والكيمياء.

3- لجنة علوم الحياة والطب.

4- لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفة.

5- لجنة الآداب والفنون الجميلة.

6- لجنة المعجم.

7- لجنة اللهجات.

8- لجنة المجلة.

9- لجنة خزانة الكتب.

10- لجنة الميزانية.

11- لجنة الأصول العامة.

- ونجد في تحديد قضايا ومحاور عمل الجمع، أنّ القائمين عليه لم يغفلوا الشأن اللغوي؛ حيث أكدوا حين التطرق للغة إلى الحفاظ على سلامة اللغة العربية، وجعلها وإقية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، وخدمتها بما يتوافق والعصر الحاضر. كما كان ذكر لنقطة تخص اللهجات العربية وهي: "أن يُظلم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية"¹⁷. وفلا كانت هناك دراسات للهجات على قلتها، وقد خصت جلها باللهجة المصرية دون لهجات باقي البلدان العربية. ومن تشكيل الجمع للجنة خاصة باللهجات، وجعل العمل على تقديم دراسة علمية للهجات العربية قضية محورية للمجمع، فذلك يعكس ويبيّن لنا حجم التبعة والتخضير الذي أولاه المجمع للعناية باللهجات وتقريبها من اللغة الرسمية في البحث اللغوي، وكذا إدخالها رصيد المعجم. فهل تحقق ذلك فعلا في المعجم الوسيط؟

6- رصيد اللهجات العربية في مادة المعجم الوسيط:

'المعجم الوسيط' بكونه موجه للمثقفين وطلبة التعليم الثانوي يكون في محتواه متوسطا، لا هو مبسط لما يقتضيه الناشئة والمتعلمون في الأطوار الأولى. كما أنّه دون المعاجم المتعمقة في الشرح والتحليل والتخريجات التي تتوافق ومستوى الباحثين والمختصين؛ أي هو معجم أقرب إلى توثيق لغة التواصل اليومي في استعمالها بميادين الحياة المختلفة، من أن يختص في أمور دقيقة بعيدة عن المألوف. وعليه تكون 'العربية الفصحى المشتركة' والموازاة معها 'اللهجات العربية' في طرفين قريبين في مادة 'المعجم الوسيط' نظريا. ومن هنا نساءل كيف توزعت مادة 'المعجم الوسيط' بين الفصحى واللهجة؟

من القواعد التي سطرها 'لجنة المعجم الوسيط' في تأليف المعجم، هو عدم التقيد بالحدود الزمانية والمكانية التي وضعت للاحتجاج باللغة العربية وجعلها مفتوحة لكل زمان ومكان حيث "لا يعترف المجمع بانقطاع سلامة اللغة العربية عند عصر معين، ولا مكان معين"¹⁸، وهذا الكلام يزيد من احتمالية شحن رصيد المعجم برصيد لغة التواصل اليومية التي تشكل اللهجة جلها.

وفلا جاءت الإشارة إلى العمل على الاستعانة بواقع الاستعمال اللغوي للعربية في العصر الحديث لوضع مادة المعجم الوسيط: وذلك عن طريق الرجوع والاعتماد على المفردات المستحدثة في الاستعمال اللغوي الحديث عند مختلف فئات وطبقات المجتمع، وقد جاء في مقدمة الطبعة الأولى للمعجم عند مصادر استقاء المادة المعجمية أن "يسمّع من طوائف المجتمع كالحدايد والتجارين والبائنين، وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات"¹⁹؛ أي تسجيل ثروة لغوية جديدة مستعملة في مختلف القطاعات والحرف الصناعية والزراعية والتجارية والتقنية... وغيرها، لإدراجها في المعجم حتى تُعرف.

حين قراءة هذه القواعد المسطرة لعمل الجمع ولوضع المعجم الوسيط يخطر لنا أنّ 'مادة المعجم الوسيط' عصرية بامتياز وأنّ اللهجات ثُمائلُ الفصحى في التواجد بين ثنايا المعجم كداخل أو كشروح، لكن حين الدراسة للمعجم نجد غير ذلك:

فاللهجات شبه مغتية في مادة المعجم الوسيط، وما كان منها فيقتصر على العامية المصرية دون بقية اللهجات العربية، وهذا يمثل اقضاء لباقي اللهجات وتقزيم لدور اللهجة المصرية في نفس الوقت. وهو أمر لا يتوافق والوعود المسطرة مسبقاً، على إعطاء نفس جديد للغة العربية وإعادة بعث اللهجات العربية أيضاً. ومن الأمثلة الواردة في المعجم على توظيف اللهجة نجد:

(المأمور): أحد رجال الإدارة المصرية (مج)²⁰. وعند البحث عن هذه الكلمة في البلدان المغاربية والجزائر مثلاً، لا نجد لهذه الكلمة استعمالاً. والغموض في شرحها لا يفتح المجال لوضع الكلمة المرادفة لها في الاستعمال اليومي في باقي البلدان العربية. لأنّ رجال الإدارة كثر، ومهامهم ودرجاتهم ونوعية الإدارات كثيرة. وهو ما يزيد من غموض الشرح زيادة إلى غموض العبارة. وعليه حبذا حين النزول إلى العاميات. أن نوفيها حقها من الشرح والضبط، كي يفهمها مستعمل المعجم، ومن جهة أخرى كي تسهم في مشروعية تداولها أكثر بين الجمهور اللغوي الناطق باللغة العربية.

وجاء في المعجم عند شرح مفردة (البلاصي) أنّها تعني: "(البلاصي): جَرّة ذات عُرّوتين، تستعمل في نقل الماء، وغيره بمصر. كأنّه منسوب إلى البلاص وهو بلد بصعيد "مصر". قد يخفف بخذف الياء. فيقال: بلاص"²¹. مفردة (البلاصي) شُرحت في حدود البيئة والثقافة المصرية العُزّية، ممّا يعني أنّ المفردة بمعناها هذا تتحقّق في حدود البيئة المصرية، أي أنّها تُصنّف في المستوى اللّهي الذي هو دون الفصحى.

ومن أمثله المستوى العامي أو اللّهي المحلي: (تَرَبَس الباب)، (السَّرسوب)، (قاوج) ...، ومن هذه النماذج نفهم أنّ مؤلفي 'المعجم الوسيط' تخطوا حاجز التقيد بالفصحى التراثي العربي، باعتمادهم لغة التواصل اليومية لعامة الناس في عصرنا الحاضر، لكنهم حصروها في لهجة 'دولة مصر' دون باقي لهجات البلدان العربية، وهو ما خلق شيء من التهميش أو التفاضل بين اللهجات العربية. ولهذا نأمل أن يُتدارك هذا الأمر في مستقبل الأعمال المعجمية، بأن يُأخذ من كلّ اللهجات العربية ما يستحق أن يُعمّم استعماله بين كلّ الناطقين باللغة العربية، بشرط أن يكون متوافقاً مع أصول العربية الرسمية المشتركة، ويتوافق مع متطلبات الاستعمال العصري للغة.

خاتمة:

ختاماً وبعد مناقشة موضوع "التمازج اللغوي بين الفصحى والعامية في العملية اللغوية ومدى انعكاس ذلك فعلياً في الرصيد المعجمي للمعاجم العربية"، خلصنا إلى إثبات مجموعة من النتائج نجملها في النقاط التالية:

- اللهجة كلفة تواصلية بين العامة من الناس، في حد ذاتها تتضمن مستويات عدة؛ لأنها مرتبطة بمستوى التعليم والوعي الثقافي، إذ كلما كان هناك وعي اقترنت اللهجة من اللغة الفصحى المشتركة، والعكس يصدق؛ فحين تسود الأمية يكثر اللحن والغربة الصوتية والتركيبية في لغة التواصل، وينسب أكثر مما هو متعارف عليه ومعهود في اللغة الفصحى أو قريب منها.
- اللهجات العربية يحيطها الغموض؛ لأنها تفتقد إلى ثلاث نقاط، هي:
 - * جمع مفردات اللهجات في معاجم مستقلة؛ حتى يتمكن من التعريف بها، ومنه دراستها وتحليلها.
 - * جمع رصيد اللهجات إلى جانب اللغة الفصحى؛ حتى يؤكد التلاحم الحاصل بين المستويين، والأصل الواحد لهما (هامش ومركز لغوي).
- * دراسة اللهجات وفق متطلبات علم اللهجات (dialecte) كفرع من فروع اللسانيات الحديثة، وليس تطبيق قواعد اللسانيات وعلم النحو على اللهجات. لأن الدراسة العلمية هي التي تضمن التأسيس النظري والاستمرارية، بدلاً من الدراسات غير المنهجية. فالفرق بينهما كائن، ولكل مستوى طبيعته ومقتضياته.
- اللهجة كممارسة لغوية تواصلية تحصل في الاستعمال اليومي بين أفراد المجتمع اللغوي، وكي تترقى إلى مستوى اللغة الرسمية فأولى محطاتها هي توثيق مفرداتها في المعجم.
- المعاجم العربية لا تزال تتعامل مع اللهجات بحساسية، وهذا يتضح من التواجد الضئيل جداً لرصيداها في المعاجم، أو تقربها في لهجة منطقة دون بقية البلدان العربية، فمثلاً: لهجة 'مصر' أو 'لبنان' سجلتا تواجداً محتشماً في رصيده بعض المعاجم، وبالمقابل غياب تام للهجات عديد البلدان العربية رغم تقاطعها مع الفصحى المشتركة، كما هو حاصل مع لهجات البلدان المغاربية المغيبة كلياً.
- اللهجة كظاهرة لسانية إنسانية متواجدة من القديم ومستمرة في وجودها، وعليه لا بد من دراستها في حالها التي هي عليه من غير إقصائها؛ لأن وجودها كائن بالفعل. ومن غير ترفيتها طبعاً - لمستوى غير التي هي عليه أيضاً، لأنها دون الفصحى الرسمية المشتركة. وكل منها له خصوصياته وضوابطه.
- ضرورة التعامل السلس في الدراسة مع اللغة واللهجة حتى يستمر التعايش بينهما بما يضمن وظيفة كل مستوى في إطاره، لأجل دفع حساسية السلطة والإقصاء لطرف على آخر. أو عبارة أخرى تفادي الوقوع في معادلة 'المركز الهامش'، وهو الصراع الذي يطرحه الواقع في البداية وثبتته الدراسة الأكاديمية.
- وامتداداً لإشكالية هذا المقال، نردفه بإشكالية ثانية مفادها: هل يوجد خلل في اللهجات العربية وعلاقتها باللغة الفصحى الرسمية، حتى تستبعد من الدراسات اللسانية والمعجمية الحديثة؟ أم أن التقصير حاصل فقط من الباحثين بعدم إدراجهم اللهجات ضمن أولويات البحث اللغوي الأكاديمي؟.

وتوصية ختامية للدراسة، لابد على الباحثين والمدرسين التمييز بين 'الفصحى المشتركة الرسمية' وبين 'اللهجات العامية' وحدود دراسة كلٍّ منهما، خاصة في مجال اللسانيات والمعجمية؛ لأنه توجد فئة كبيرة من الدارسين يُسوون في كتاباتهم بين العربية الرسمية وبين العاميات، خاصة عند تطرقهم لتطبيق النظريات اللسانية على لغتنا، وكذلك في جمع الرصيد اللغوي للمعاجم المعاصرة. وشأن لغة لها قواعد تحكمها وتخضع لها رسميًا، وبين لهجات تتحرك في رياح الاستعمال اليومي لكل فئات المجتمع، المتعلم منهم والأُمِّي على السواء؟.

هوامش:

- 1 إبراهيم أنيس، 2003، في اللهجات العربية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص15.
- 2 ينظر: عبد الغفار حامد هلال، 1993، اللهجات العربية نشأة وتطور، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، ص162-193.
- 3 محمد أديب السلاوي، 2015، اللغة العربية- الصراعات المتداخلة، ط1، مطابع الرباط نت، المغرب، ص84.
- 4 المرجع نفسه، ص84.
- 5 ابن فارس أبو الحسن أحمد بن زكريا، 1989، معجم مقاييس اللغة، ج5، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، مادة (ل ح ن)، ص239.
- 6 عبد العلي الودغري، 2014، لغة الأمة ولغة الأم- عن واقع اللغة العربية وبيئتها الاجتماعية والثقافية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص217-218.
- 7 المرجع نفسه، ص217.
- 8 جلال لعفيون، 2019، الجهود الجماعية والعمل المعجمي الحديث- دراسة مقارنة بين المعجم الوسيط للمجمع المصري ومعجم لاروس الفرنسي، أطروحة دكتوراه علوم، الجزائر، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، ص45-46.
- 9 فلوريان كولماس، 2009، دليل السوسيو لسانيات، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهبي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ص173.
- 10 المرجع نفسه، ص359.
- 11 أحمد عزوز ومحمد خاين، 2014، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسي، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ص56.
- 12 نذير محمد مكتبي، 1991، الفصحى في مواجهة التحديات، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، ص286.
- 13 القصد بمصطلح "المستويات اللغوية": المستويات اللغوية الثلاث الكبرى في البلاد العربية، وهي :
أ- مستوى اللهجة أو العامية.
ب- مستوى اللغة الفصحى أو اللغة الرسمية المشتركة.
ت- مستوى اللغة الأجنبية أو اللغات الوافدة.
- 14 أحمد عزوز ومحمد خاين، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسي، ص58.

- 15 صدر مرسوم إنشاء مجمع القاهرة "يوم 13 ديسمبر 1932م" بأمر من ملك مصر "فؤاد الأول" تحت اسم «مجمع اللغة العربية الملكي» مع اعتباره تابعاً لوزارة المعارف العمومية، وأن يكون مركزه مدينة القاهرة. وهو مؤسسة: تكونت، لخدمة اللغة صيانةً وتطويراً، يُسيّرُها نخبةٌ من العلماء ذوي الأهلية العلمية والكفاءة اللغوية.
- 16 ينظر: قرارات المجمع، مجلة مجمع اللغة العربية المصري، ج1، صص 29-33.
- 17 ينظر: مرسوم إنشاء مجمع ملكي للغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية المصري، ج1، صص 6-7.
- 18 محمد أحمد أبو الفرج، 1966، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية، مصر- القاهرة، ص38.
- 19 مجمع اللغة العربية، 1960، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص26.
- 20 المرجع نفسه، مادة (أ م ر).
- 21 المرجع نفسه، مادة (ب ل ص).

قائمة المراجع:

- 1- إبراهيم أنيس، 2003، في اللهجات العربية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- 2- عبد الغفار حامد هلال، 1993، اللهجات العربية نشأة وتطور، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة.
- 3- محمد أديب السلاوي، 2015، اللغة العربية- الصراعات المتداخلة، ط1، مطابع الرباط نت، المغرب.
- 4- ابن فارس أبو الحسن أحمد بن زكريا، 1989، معجم مقاييس اللغة، ج5، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.
- 5- عبد العلي الودغيري، 2014، لغة الأمة ولغة الأم- عن واقع اللغة العربية وبيئتها الاجتماعية والثقافية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 6- بلال لعفيون، 2019، الجهود الجماعية والعمل المعجمي الحديث- دراسة مقارنة بين المعجم الوسيط للمجمع المصري ومعجم لاروس الفرنسي، أطروحة دكتوراه علوم، الجزائر، جامعة قاصدي مرباح- ورقلة.
- 7- فلوريان كولماس، 2009، دليل السوسيو لسانيات، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهبي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان.
- 8- أحمد عزوز ومحمد خاين، 2014، العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسي، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر.
- 9- محمد أحمد أبو الفرج، 1966، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية، مصر- القاهرة.
- 10- مجمع اللغة العربية، 1960، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.